ترجمة الشعر بين المبنى والمعنى
شعر محمد إقبال نموذجًا

الدكتور: محمد قماري

في بحثه الموسوم بـ«الترجمة الأدبية بين إشكالية الدال الثابت والمدلول العائم» يذهب الدكتور نورالدين صدار إلى القول بأن: «الترجمة الأدبية من أصعب أنواع الترجمات، لأنها تعتمد بصورة كبيرة على التذوق والتماهي مع خيال المبدع لتكون صورة الترجمة والمادة الأدبية إبداعية غير حرفية؛ ومن هذا الباب تصبح الترجمة الأدبية علما وفنا ومهارة. ذلك أن الترجمة الحرفية لا تعطي النص المترجم حقه أو لونه الفني ومدى رفعته وتأثيره في لغته الأصلية؛ فالمدلول في النص الأدبي عائم لا يستقر على حال ولا يشير إليه الدال الحرفي» [1].

والشعر بأوزانه وموسيقاه يتخطى الدال والمدلول في مستوى البنى السطحية للغة، ويضع المترجم، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، ينفذ إلى أن يحفر في مستويات التكثيف اللّغوي (المبنى) ويتوّسل بالمجاز والبلاغة لنقل (المعنى) في أرقى صوره، لذلك يعد الشعر أرقى أنواع التعبير الأدبي في كل اللغات على الإطلاق؛ ونقله عن طريق الترجمة من لغة إلى أخرى لا يتيسر لكل مغامر.

حالة اسمها : إقبال

ما سبق وأن صدرنا به هذا الموضوع، إنمّا كان عن الشعر بحسبانه إبداعًا فنًيا ؛ وزاوية النظر تختلف، بطبيعة الحال، إذا تعلق الأمر بمبدع شاعر تنوعت وتعددت مشاربه المعرفية، وهو لا محالة يُضمِّن هذه المعارف في ثنايا شعره.

إن الحديث يجري، منذ عقود، في العالم العربي عن (الفيلسوف) محمّد إقبال، وهو وصف يتلقاه الناس بألسنتهم، ويتردد بينهم بحسبانه صفة أو ملحقاً باسم هذا العَلم؛ دون الإشارة في الغالب إلى هذه (الفلسفة) أو مكامن القوة فيها، ولا يكاد يسلم من هذا الإطلاق في الوصف و(التهويم) في التعظيم، المنتسبون للعلم والثقافة ناهيك عن عامة المثقفين ونَقَلَة الأخبار.

---

[1]- أعمال الملتقى الثاني الدولي حول السميائيات والتعليمية والاتصال، جامعة يحي فارس، المدية، ص 100، يومي 27 و28 نوفمبر 2011.

وهم معذورون في ذلك!

ذلك أن تقصي أثر محمّد إقبال لا يجدي فيه إتباع مسلكٍ معرفيٍ واحدٍ، فالحديث عنه وعن تراثه الفكري والأدبي، يحتاج إلى التسلح بأدوات أولها المعرفةُ باللغات الأردية والفارسية والإنكليزية؛ وإلى أدوات معرفية في الفلسفة والشعر والسياسة والعقيدة، لأن الساحات التي خاض فيها إقبال معاركه وزرع فيها إنتاجه، وتبدت عبقريته من خلالها هي كل تلك الساحات.

فـ(محمّد إقبال) الذي ولد في مدينة سيالكوت (الباكستان) في التاسع من شهر نوفمبر عام 1877، وتوفي في الحادي عشر من شهر أفريل عام 1938، بدأ تعليمه الأول في محل ولادته، حيث درس مبادئ العلوم الإسلامية واللغتين الفارسية والعربية، التحق بكلية الحكومة في لاهور عام 1895، ونال منها الإجازة في الفلسفة ثم شهادة الماجستير عام 1897 في الفلسفة الإسلامية؛ وتتلمذ في هذه الكلية على المستشرق توماس أرنولد؛ ثم انتقل بعد ذلك إلى بريطانيا، وانتسب طالبًا في جامعة كامبردج، ونال منها إجازة في الفلسفة عن موضوع: (ازدهار علم ما وراء الطبيعة في بلاد فارس)؛ وتابع دراسته بجامعة ميونيخ في ألمانيا، ونال منها شهادة الدكتوراه في الفلسفة عن الموضوع السابق نفسه.

درس إقبال الحقوق وحصل على شهادة المحاماة في جامعة لندن، وأجاد الإنكليزية والفرنسية والألمانية والفارسية والأوردية، وعرف العربية والسنسكريتية، وباللّغة الأوردية والفارسية نظم العديد من دواوين الشعر.

إن نظرة في مجمل ما كُتب عن الدكتور محمد إقبال في الأدبيات العربية، مجلات كانت أم كتبًا أم محاضرات أم كلمات عابرة في حق هذا الرجل الفذ الذي ذاع صيته في الشرق والغرب؛ لتكتشف «التباين بين الصورة التي كان عليها الرجل في الواقع والصورة التي رأيتها مجسدة في الأدبيات العربية. وكنت مؤمنًا أن هذا الفيلسوف الشاعر أكبر بكثير من الملامح التي رسمتها له الأدبيات العربية... سواء أكانت هذه الجوانب تتعلق بحياته أم كانت تتعلق بمؤلفاته وفلسفته وشعره» [2].

بيام مشرق (رسالة الشرق)

أتى العرب على ترجمة مجمل الأدب الكلاسيكي الفرنسي، فأسماء أعلام ذلك الأدب (بودلير، وموليير، وهيغو، وموبسان...) دخلت المكتبة العربيّة، كما أتوا على نصيب وافر من ترجمة الأدب الانجليزي والأمريكي، لكن (سحر الشرق) الماثل في آدابه وثقافته ظل نصيبه من النقل إلى العربية متواضعًا، إذا

---

[2]- سمر روحي الفيصل، صورة الدكتور محمد إقبال في الأدبيات العربية، مجلة التراث العربي العدد 27- 28، أفريل 1987، اتحاد الكتاب العرب، دمشق- سوريا.

استثنينا بعض ما تم نقله من أدب الأديب البنغالي (روبندرونات طاغور) أو ما كان مع رباعيات عمر الخيام.

ولعل الدكتور عبدالوهاب عزام (1894 -1959) من أوائل من انتبه إلى عظمة وتميّز محمّد إقبال الذي يقول في مقدمة كتبها سنة 1951 غداة ترجمته لديوان (پيام مشرق): «سمعت أول ما سمعت بمحمد إقبال وأنا في لندن، قبل عشرين عامًا، سمعت كلامًا مبهمًا موجزًا عن شاعر صوفي في الهند اسمه إقبال، لم يُعرفني هذا الكلام بإقبال، ولم يشوِّقْني كثيرًا إلى معرفته.

وأذكر أن شابًّا من مسلمي الهند تكلم يومًا عن إقبال في مدرسة الدراسات الشرقية من لندن، ولكن لهجته وعجلته في الكلام، وغموض الموضوع، حالت دون أن نعرف إقبالاًمن كلامه»، ويضيف عزام: «وكان محمد عاكف (رحمه لله) الشاعر الكبير، الذي يسمى في تركيا شاعر الإسلام، صديقًا لي وكنا نقيم في مدينة حلوان، فنلتقي بين يوم وآخر، ولا يمر أسبوع دون اللقاء مرة أو أكثر.

وكنا حين نلتقي نتذاكر الآداب العربيَّة والفارسية والتركية، وأقرأ عليه شعره أحيانًا.

وذات يوم أراني ديوانًا اسمه (پيام مشرق) للشاعر محمد إقبال، فقرأنا معًا فكان أول شعر لإقبال قرأت، راقني الشعر وشاقني إلى الاستزادة منه؛ إذ رأيت ضربًا من الشعر عجيبًا، يُذَكِّر بحافظ الشيرازي وشعراء آخرين من الصوفية، ولكن فيه ما لم نعهد في شعر هؤلاء من فلسفة يصورها الشعر نورًا وناراً في عين القارئ وقلبه [3]».

بيام مشرق أو (رسالة الشرق) إذن هو أول لقاء بين شاعر فيلسوف وأديب واسع الاطلاع والثقافة، رأى في الديوان الذي قرأه «فلسفة يصورها الشعر نورًا وناراً في عين القارئ وقلبه».

وشرع الدكتور عزام في ترجمة مقطوعات من شعر إقبال، ونشرت على صفحات مجلة (الرسالة) التي أسسها الأديب أحمد حسن الزيات، وكانت المجلة تدخل سنتها الثالثة من عمرها.

وجاء المقال الأول في العدد 80 بتاريخ 14 جانفي 1935، وحفل بترجمة مقطوعات من ديوان (رسالة الشرق)، وأتبعه بمقطوعات من ديوان (رموز بيخودي) في العدد 85 بتاريخ 18 فيفري 1935؛ وحفل العددان 87 و88 من (الرسالة) بترجمة مقطوعات من رباعيات إقبال (شقائق الطور) ونشرت بتاريخ 4 مارس و11 مارس 1935.

---

[3]- الدكتور عبدالوهاب عزام، مقدمة ترجمته لديوان بيرم مشرق، ص 8، كلمات للترجمة والنشر، 2013، القاهرة، مصر.

آثر الدكتور عزام تقديم شعر إقبال منثورًا مع علمه أن نثر الشعر ما كان محل اهتمام القارئ العربي، وأن «جرت العادة لدى غالبية المترجمين على تقديم الشعر الأجنبي منثورًا بعد خلعه من ثوبه الفني؛ والشعر –كما هو معروف– عصي على الترجمة، يؤثر في القارئ بلغته، فإذا نقل إلى لغة أخرى فقد معظم أثره، وقد لاحظ المرء في أثناء قراءة شعر إقبال أن هناك من سرد معنى الأبيات الشعرية»[4].

ونقرأ من العدد 80 من مجلة الرسالة مقالاً للدكتور عزام نقل فيه بعض معاني إقبال تحت عنوان (من ديوان رسالة المشرق):

- **الملك للّه**

أضرم طارق النار في سفائنه على ساحل الأندلس، فقيل له هذا أفَنٌ ينكره العقل! كيف نرجع إلى الديار، وقد شط المزار؟ إن الشريعة لا تجيز ترك الوسائل! فضحك وأصلت حُسامه وقال: كل مُلك ملكنا، لأنه مُلك ربنا

- **الحياة**

سألت حكيمًا: ما الحياة؟ قال: حمر أمرها أطيبها. قلت: إنها دودة تنشأ من الطين. قال: بل وليدة النار السمندل. قلت: إن الشر مضمر في فطرتها. قال: هي شر كلها إذا لم تعرف خيرها.

قلت: إن غرامها بالمسير لم يبلغها منزلاً. قال إن منزلها في هذا الغرام نفسه. قلت: إنها ترابية ومرجعها التراب. قال: إن الحبة إذا شقت التراب فهي وردة ناضرة.

- **الشقيقة**

أنا الشعلة التي أضرمت في أحضان العشب من فجر الأزل، قبل أن يٌخلق البلبل والفراس، أنا أعظم من الشيء، ولكني منبثة في كل ذرة، وقد خلقت السماء شرارها من حرقتي: سقطت على صدر المرج لحظة فنبع من ترابي غصن ناضر فاستلب ناري وقال: تلبثي في أحضاني قليلاً، ولكن قلبي السليب لم يقر قراره، فاضطربت في ضيف الغصن حتى تجلى جوهري باللون والرائحة، فنثر الندى في طريقي جواهر متلألئة، وضحك لي الصبح، وأطافت بي ريح الصبا، وسمع البل من الورد أن ناري قد سُلبت، فتأوه وقال: لقد أسترت ثوب الحياة غالبًا، هأنذا أفتح صدري لضوء الشمس وأحتمل منتها، فمن لي بأن تعود ناري مشتعلة في صدري؟

[4]- سمر روحي الفيصل، مرجع سابق.

هذا نموذج لانطباع سريع من شعر إقبال، سيورق ويزهر بعد سنوات عندما قام عبدالوهاب عزام بنقل الديوان شعرا، ومنه نقرأ مقطوعة سبق أن أثبتناها في ما سبق مترجمة نثرا:

- **الملك للّه**

طارق أحرق السفين فقالوا : ليس هذا من فعله برشيد.
غرباء ومن لنا برجوعٍ ذا خطار في الشرع غير سديد
أمسك السيف طارقٌ في ابتسامٍ قائلاً واثقًا بعزم شديد:
مُلكنا اليوم خالصا كل ملك إنه ملك ربنا المعبود

في الترجمة النثرية، احتاج المترجم إلى توضيح المقصود بطارق، فأضاف كلمة «الأندلس»، لكن ضرورة الوزن والقافية جعلت المترجم يتجاوز هذا التوضيح، لأن الأصل في الشعر التكثيف، والأصل في الشعر الجرس والموسيقى التي تنساب مع سياق الجملة الشعرية.

مضى الدكتور عزام مع شاعره يقتفي آثاره الشعرية، ومن الدواوين التي ترجمها: بيام مشرق (رسالة الشرق) 1951 – ضرب كليم (شريعة موسى) 1937- أسرار خودي (أسرار الذات)؟

وفي الختام هذا عرض سريع لتجربة في الترجمة الأدبيّة لنصوص شعرية، نصوص فيها حمولة ثقافة رجل موسوعي، ضرب في مناحي المعرفة وعلا جبالها وخبر أحراشها ووهادها، ولعل هذا ما يضع المترجم في حرج نقل المعنى والحفاظ على جماليات المبنى.

هناك آخرون غامروا بترجمة شعر إقبال كالعلامة الهندي المرحوم أبي الحسن علي الندوي (روائع إقبال)، والعلامة الباكستاني محمد حسن الأعظمي الذي ترجم إلى العربية نثرا قصيدتي إقبال «شكوى» و«جواب شكوى» (ضمن قصائد أخرى لإقبال)، وغير هؤلاء كثير.

غير أن ما يميز الدكتور عزام وبعضا من المترجمين الآخرين، أنهم قاموا بنظم تلك القصائد شعرا وزن من الأوزان العربية. «أما أوزان الشعر التي نظم فيها إقبال مثل «مثنوي» و«قصيدة» و«رباعي» و«قطعة» و«مسدس» فلم تتح للقارئ العربي فرصة الاطلاع عليها، مما حرمه من أداة التعبير التي استخدمها إقبال وبزّ فيها أقرانه» [5].

[5]- . المرجع السابق.

- **حديث الروح**

هناك قصيدة من قصائد إقبال طارت شهرتها بين العرب وهي قصيدة «حديث الروح» التي غنتها أم كلثوم، ولهذه القصيدة وترجمتها قصة نحب أن نعرضها.

كان العلامة الأعظمي كما أشرنا فيما سبق، قد ترجم إلى العربية نثرا بعض قصائد إقبال ومنها قصيدتا «شكوى» و«جواب شكوى» (ضمن قصائد أخرى لإقبال)، وقدمهما للشاعر المصري الصاوي علي شعلان الذي أعاد كتابتهما نظما راقيا.

وأعجبت أم كلثوم بالكلمات، فاختارت أبياتا من القصيدتين المذكورتين جعلتها كلمات لأغنيتها التي سمتها: (حديث الروح).

كتب إقبال قصيدة «شكوى» مخاطبا الله عز وجل، أما جواب شكوى فقد تخيل فيها الشاعر صوتا سماويا يدوي بصيحة الحق جوابا لهذه الشكوى.

وقصيدة «شكوى» قصيدة طويلة في 120 بيتًا، ولم تلتزم أم كلثوم في اختيارها للأبيات بالترتيب في القصيدتين، وتبدأ بالبيت:

شكواي أم نجواي في هذا الدجى ❖❖❖ ونجوم ليلي حسدي أم عودي

ولكن أغنية حديث الروح تبدأ بأول بيت من جواب شكوى وهو:

كلام الروح للأرواح يسري ❖❖❖ وتدركه القلوب بلا عناء

ومما يلاحظ أنها استبدلت في الأغنية كلمة «كلام» بكلمة «حديث» ذلك أن كلمة «حديث» في موضع الغناء واللحن أكثر شاعرية، أما قصيدة «جواب شكوى» فهي أيضًا طويلة بل أكثر طولاً من الشكوى فهي تقع في 140 بيتًا وأم كلثوم تختار لأغنيتها 26 بيتا من القصيدتين معا (أي عشرة في المئة من القصيدتين) فتبدأ بتسعة أبيات من جواب شكوى ومطلعها:

حديثُ الروحِ للأرواحِ يسري ❖❖❖ وتدركهُ القلوبُ بلا عناءِ
هتفتُ بهِ فطارَ بلا جناحٍ ❖❖❖ وشقَ أنينهُ صدرَ الفضاءِ
ومعدِنهُ ترابيٌ ولكن ❖❖❖ جرتْ في لفظهِ لغةُ السماءِ
لقد فاضتْ دموعُ العشقِ مني ❖❖❖ حديثًا كان علويَ النداءِ
فحلقَ في رُبَى الأفلاكِ حتى ❖❖❖ أهاجَ العالمَ الأعلىَ بكائي

ثم تنتقل أم كلثوم إلى الأبيات الأولى من ((شكوى)) التي جاءت في الأصل قبل جواب شكوى وهي تقول:

شكواي أم نجواي في هذا الدجى ❖❖❖ ونجوم ليلى حسدي أم عوّدي

أمسيت في الماضي أعيش كأنما ❖❖❖ قطع الزمان طريق أمسي عن غدي

والطير صادحةٌ على أفنانها تبكي ❖❖❖ الربى بأنينها المتجدد

قد طال تسهيدي وطال نشيدها ❖❖❖ ومدامعي كالطّل في الغصن الندي

قيثارتي مُلِئَتْ بأناتِ الجوى ❖❖❖ لابد للمكبوت من فيضان

صعدت إلى شفتي خواطر مهجتي ❖❖❖ ليبين عنها منطقي ولساني

أنا ما تعديت القناعة والرضا ❖❖❖ لكنما هي قصة الأشجان

يشكو لك اللهم قلبٌ لم يعش ❖❖❖ إلا لحمد علاك في الأكوان

ثم تأخذ أم كلثوم الأبيات التالية من (جواب شكوى):

إذا الإيمان ضاع فلا أمان ❖❖❖ ولا دنيا لمن لم يحي دينا

ومن رضي الحياة بغير دين ❖❖❖ فقد جعل الفناء لها قرينا

وفي التوحيد للهمم اتحادٌ ❖❖❖ ولن تبنوا العلا متفرقينا

وفي هذا العمل المتكامل، اجتمعت الكلمة الرفيعة الحاملة للمعاني السامية والترجمة الراقية التي توفر لها مترجم خبير بأسرار اللّغتين المنقول عنها والمنقول إليها وترجمها نثرا، ومترجم شاعر من أبناء اللغة العربية، نقلها من النثر إلى النظم شعرا عذبًا صافيًا ثم جاء صوت غنائي رخيم فصاغها نشيدا يتغنى به الناس عبر الأجيال.